

جمهور الفرد وجمهور الحكومة

في الأمة الانجليزية

للاستاذ سلامة موسى

تمتاز الأمة الديمقراطية بميزات كثيرة ربما كان من أهمها شعور الفرد بأنه جزء من الحكومة وأن ما تحرزه الأمة من تقدم أو تأخر يتوقف عليه وعلى غيره من أفراد الشعب كما يتوقف على الحكومة نفسها ، لأن الحكومة الديمقراطية هي الشعب الديمقراطي . وكلاهما لهذا السبب يشعر بالتضامن شعورا قويا ، فالأولى تعتبر سبب وجودها العمل على خدمة الشعب ، والثاني يعد نفسه مسئولاً عن جميع حسنات هذه الحكومة أو سيئاتها .

وهذا الشعور بالتضامن يجعل الفرد راعياً مسئولاً عن رعيته ، ويبدو هذا الشعور في الصفائر التافهة التي قلما نلتفت إليها كما يبدو في المهام العظيمة . يبدو في الرجل يحمل تذكرة الترام الى سلة المهملات فيثقيها فيها كراحة منه في طرحها في الشارع حتى يبقى نظيفاً . كما يبدو في الصبي ينزعه في الحديقة العامة فلا يطاوع نفسه على أن يقطف زهرة لكي يزين بها صدره لأنه يعرف أنه مسئول عن هذه الحديقة إذ هي حديقة الحكومة أي حديقة الشعب أي حديقته هو . ولكن هذا الشعور نراه أيضاً في المهام العظيمة ، في رجل مثل اللورد بولدوين يتبرع لخزانة الدولة البريطانية - دون أن يقضى اسمه - بمائة ألف جنيه في الحرب الماضية لكي تنفق لإحراز النصر ، أو في رجل آخر - لا يزال مجهول الاسم - يتبرع لمدينة جلاسجو بمئسة عشر ألف جنيه لكي يجمع من ربحها المتراكم كل ثلاث سنوات ألف جنيه تمنح جائزة لمن يخدم هذه المدينة أية خدمة مدنية أو ثقافية .

هذه الأمثلة كثيرة في الأمم الديمقراطية ، وهي لا تقتصر على التبرعات الضخمة للأعمال الجليلة تقوى بها ويزداد انتفاع الجمهور منها ، بل هي أيضاً تنبج نحو الابتكار في الخدمة الاجتماعية أو الصحية أو الثقافية . فاذا ما ثبتت أو اتضحت فائدتها اضطرت الحكومة الى معاومتها . وهذا هو الشأن في كثير من الإصلاحات . وستنصر حديثنا عن بعض هذه الإصلاحات في بريطانيا وكيف أن فضل الابتكار كان للفرد حتى إذا تقدم الإصلاح خطوة بل خطوات وهو مجهود فردي بحت ، تقدمت الحكومة بالمعاونة . ولا تزال الأمم الديمقراطية

تتمد على مجهود الفرد يسبق مجهودها وبعدها الطريق ويمهد العقبات الأولى وينشر الدعوة وبعدها عقاية الرأي العام . ثم تدخل هي في النهاية فيكون الانتفاع بقوتها المالية وإدارتها الرشيدة . ويجدر بنا في حصر أن ندرس هذا الموضوع لا في بريطانيا وحدها بل في سائر الأمم الديمقراطية ، لأننا كثيراً ما نميل الى القول بأن الاصلاحات الاجتماعية والصحية والاقتصادية يجب أن تقوم الحكومة بها وحدها، كأن الفرد لا يكلف شيئاً منها . وهذا روح يبعث على الترنح والفتور بين الأفراد كما أنه يحرم الحكومة من الحوافز المحركة الى الاصلاح .

ففي بريطانيا كثير من الاصلاحات وكثير من المؤسسات الحيوية النافعة ابتكرها أفراد الجمهور ودعوا اليها واحتضنوها وأنفقوا عليها، ولا تزال الى الآن في أيدي الهيئات المستقلة لا تمد يدها لطلب المساعدة الحكومية .

١ - فن ذلك مثلاً إنشاء المستشفيات ، ففي بريطانيا كان هذا البر السامى الى وقت قريب من مبتكرات الشعب لا شأن للحكومة به . ولا تزال أكبر المستشفيات التي تعالج الفقراء بالمجان أو بالأجور المئيلة تديرها هيئات شعبية . وهي تهب من أوقاف حبست عليها ومن تبرعات الأفراد . وصحيح أن الحكومة البريطانية أنشأت بعض المستشفيات التي تديرها المجالس المحلية ، ولكنها صغيرة الى جنب هذه المستشفيات التي أسسها الشعب والتي لا يزال الشعب ينفق عليها . وإذا قصد أحد الأجانب الى لندن لكي يسأل عن مستشفى كبير يعالج فيه فإنه لن يجد للحكومة البريطانية واحداً من هذه المستشفيات وإنما هو يوجد العشرات يملكها الجمهور مثلاً في أبنائه الأبرار الذين تبرعوا بمئات الألوف من الجنيهات لإنشائها أو في الجمعيات العديدة الحرة التي تديرها وهي تعتمد على البروتنتظر التبرعات . ولذلك كثيراً ما يجد قراء الصحف أو المجلات الانجليزية نداءات قد نشرت في صورة إعلان من مستشفى كبير يطلب التبرعات من الأفراد .

فأولاً نحن المصريين بأن نتعظ بهذا المثل الذي يعلمنا أنه يجب على الشعب أن يذكر فقراءه ومرضاه فيؤسس المستشفيات ويهبس عليها الاوقاف ويتبرع على التبرع لبقائها وحفظها وصيانتها .

٢ - وفكرة الملاجئ للايتام والمحرومين وذوى العاهات من الأطفال والصدبان هي في الأمة الانجليزية مجهود الفرد قبل أن تكون مجهود الحكومة . فاذا تصفحت أية جريدة أو مجلة انجليزية قبل عيد الميلاد أو في أشهر الشتاء وجدت نداء من "بيوت بارناردو" تطلب منك شيئاً من نقودك أو هداياك أو من ملابس وأطعمة أو من لعب للأطفال . وهذه البيوت تبلغ نحو مائة وسبعين بيتاً أو مدجاً تؤوى الطفل الرضيع الى الصبي الذي يفارب السادسة عشرة ، أسسها الدكتور بارناردو سنة ١٨٦٦ ولا تزال حية تنمو وتتكاثر بمجهود الشعب

الذى ينفق عليها نحو نصف مليون جنيه كل عام ، ويدخلها الأعمى والأعرج واليتيم والعاجز ومن له أبوان فقيران . ورخصة الدخول للرضيع أو الطفل أو الصبي حتى « الحاجة » لا شيء غيرها . وبعض هذه الملاجئ قد أقيم في وسط الحدائق الغناء في أحياء الأغنياء بالمدن الكبيرة ، وبعضها في قرى أ نموذجية . وهؤلاء اللاجئون يأكلون وينامون ويتعلمون بالمجان . بل أكثر من ذلك . فان الإدارة العامة لهذه الملاجئ قد استطاعت أن ترسل من الشبان والفتيات الذين نشأوا فيها أكثر من ثلاثين ألفا الى المستعمرات البريطانية حيث ميادين العمل والتكسب أوسع وأرجح .

ليس هذا المجهود الفردى الذى أسسه رجل عظيم والذى تعهده الشعب بعد وفاته بمبراته وصدقائه جدير بالتحية والإعجاب بل جدير بالاعتداء ؟

٣ - ثم هناك مجهود ثالث كان الشعب البريطانى وحده يقوم به إلى وقت قريب ، هو انشاء المدارس لتعليم الشعب بالمجان . ونحن نقرن التعليم في أذهاننا إلى واجبات الحكومة . وهو كذلك الآن في جميع الأقطار المتقدمة ولكن الشعوب المتقدمة هي التى غرست الأصول وزرعت البذور لهذه الحركة وأسستها الحكومات بعد أن زكا الزرع وامتدت فروعه .

ولنتظر الآن الى الشعب البريطانى ، وماذا فعل في سبيل تعليم نفسه قبل أن تقوم الحكومة بتعليمه . وحسبنا أن نذكر التواريخ التالية لكي نبين أن مجهود الشعب قد سبق بمجهود الحكومة :

(أ) لم تنشأ وزارة المعارف الإنجليزية إلا في سنة ١٨٩٩ أى أنها الى الآن لا يزيد عمرها على أربعين سنة .

(ب) لم يصر التعليم الابتدائى اجباريا بمحكم القانون في بريطانيا إلا سنة ١٨٧٠

(ج) لم تؤد الحكومة البريطانية إعانات مالية للمدارس الأهلية إلا سنة ١٨٣٩

هذه الحقائق تدلنا على مجهود الفرد في نشر التعليم في بريطانيا ، هذا الفرد الذى يعرف معنى التعاون والاستقلال بإنشاء الجمعيات . فنذ أكثر من قرنين نجد ما كان يسمى " جمعية ترقية المعارف المسيحية " وهى تؤسس المدارس في أنحاء البلاد ، وتجمع التبرعات للاتفاق عليها من المحسين . ثم نجد أن فردا يدعى جوزيف لانكستر يؤسس سنة ١٨٠١ طائفة من المدارس للفقراء تمتاز باستقلالها عن المذاهب الدينية . وهناك بالطبع مدارس كبيرة تدعى " المدارس العامة " ينشئها الأغنياء بأوقاف عظيمة . وهذه المدارس الأهلية لاتزال الأنموذج الذى تقتدى به مدارس الحكومة في بريطانيا ولا نسمع عن تدخل الحكومة في التعليم إلا سنة ١٨٣٩ حين قدمت إعانات مالية للمدارس الفقيرة .

وبكلمة أخرى تقول إن مجهود التعليم في الجزر البريطانية قام على عاتق الأمة قبل أن تتولاه الحكومة .

المستشفيات والملاجئ والمدارس قل أن نذكرها في مصر دون أن يحمل على الحكومة وتبتمها بالتقصير في إنشائها ، ولكنا نمنى أن مجهود الفرد سبق بمجهود الحكومة في جميع الأقطار المتمدنة التي نذكر مثلا واحدا منها هو بريطانيا . ونستطيع أن نذكر أمثلة كثيرة أخرى ولكنا تتحاماها خشية تشعب البحث . فإن روح الإصلاح والرق كانت ولا تزال تدع من الشعب . ويجب أن تكون كذلك في كل عصر : الشعب يتكرا الإصلاح ويتطوع له ويسير فيه شوطا ثم يحمل الحكومة على متابعته .

ونحن نعرف أن الحكومة البريطانية تتولى في الوقت الحاضر ألوانا مختلفة من " التأمين الاجتماعي " فهي تؤدي إعانة مالية كبيرة للعاطلين ، وإعانة أخرى للسنين ، وأخرى للمرضى ، وغيرها للوالدات قبيل الوضع وبعده . وهذا المجهود يكلف الحكومة بضع مئات الملايين من الجنيهات كل عام . ولكنا نمنى أن الإيحاء جاء من الشعب . وأن هذا المجهود كان مجهود الفرد قبل أن يكون بمجهود الحكومة . إذ قبل أن تتولى الحكومة هذه الواجبات كان للشعب البريطاني - ولا يزال - مئات الجمعيات التي تسمى " جمعيات الصداقة " وهي جمعيات صغيرة في الأغلب ولكنها عديدة يتدجج فيها الأفراد من رجال ونساء ويؤدون اشتراكات معينة لمواجهة الطوارئ . فإذا رزق العضو مولودا أو إذا مات العضو أو مات أحد ذويه الأقربين أو إذا حدث بمزله حريق أدت الجمعية إعانة تسد الخسارة أو تخفف الكارثة على قادر الإمكان .

وبعض هذه الجمعيات يؤدي إعانات في وقت المرض ، وبعضها يقوم بمثل ما تقوم به شركات التأمين ولكن للفقراء . وبعضها يقوم ببناء المنازل . ومع أن القوانين الجديدة التي سنتها الحكومة للتأمين الاجتماعي قد قللت من قيمة هذه الجمعيات فإن عددها لم يهبط عما كان عليه . وأموالها في الوقت الحاضر لا تقل عن ثلثمائة مليون جنيه . بل إن هذه الجمعيات ونقابات العمال التي جاءت بعدها هي التي حملت الحكومة على التفكير في ضروب التأمين الاجتماعي المختلفة . وهنا نرى أيضا أن مجهود الفرد قد سبق بمجهود الحكومة بل كان الباعث عليه . وإلى جنب هذه الجمعيات نستطيع أن نذكر " جمعيات التعاون " التي هي الآن في بريطانيا مجهود الفرد . والتي لا تقل أموالها عن مئمة مليون جنيه تستلها في الزراعة والصناعة والتجارة . وجمعية التعاون هي قوة للتغيير تحول دون الاحتكار والغلاء وتعلم الأعضاء مبادئ كريمة في الأخلاق تجمع بين الفقراء لتجعلهم أغنياء بالتعاون ينتجون ويشتركون ما ينتجون . وهم ينتفعون بالمبدأ التآمل بأن ما يعجز عنه الفرد وحده تستطيعه الجماعة .

ان كثيرا من مؤسسات الخير والثقافة والتعليم التي تديرها الحكومة البريطانية في الوقت الحاضر مثل الملجأ أو المدرسة أو المتحف أو المكتبة ، بل ان كثيرا من قوانين البر مثل التأمين من التعطل والشبخوخة والمرض - هذه المؤسسات وحده التوانين إنما قام بها الأفراد متساندين جماعات ومتطوعين للخير ، قبل أن تقوم بها الحكومة . فان الشعب هو الذي عبد الطريق للحكومة . وهو الذي حملها على أن تأخذ على عاتقها هذه الخدمات ، وقل أن يموت ثرى في بريطانيا العظمى دون أن يجس على الخيرات مبلغا في وصيته . هذا اللورد نوفيلد صاحب أنوميالات موريس قد تبرع الى الآن لأعمال البر بما يقرب من خمسة عشر مليوناً من الجنيهات . وكان آخر مبراته جمعية الصليب الأحمر حين تبرع لها بمائة ألف جنيه واشترط أن يتبرع الجمهور بمثل هذا المبلغ . وهو بهذا العمل يربى الجمهور على البر ونفى في نفسه الحمية الوطنية ويذره على الاحسان .

ولعل الاستمرار أبعد الأشياء في أذهاننا عن أن يكون موضوع تفكير الفرد . مع أننا إذا قرأنا التاريخ نجد أن الامبراطورية البريطانية قد وضع أسسها بل شيد بعض جدرانها أفراد أو هيئات مستقلة عن الحكومة . وحنا نثب الى الذهن ذكرى "سسل رودس" في أفريقيا الجنوبية . وذكرى "شركة الهند الشرقية" في الهند . وقد نجد نحن الاستمرار ولكننا نضرب هذا المثل لكي نبرهن به على أن الأفراد في أمة ديمقراطية متقدمة مثل بريطانيا يقومون بالضخم من الأعمال التي اعتدنا أن نحسبها من واجبات الحكومات وحدها .

وإذا كانت الديمقراطية تعنى أن الشعب يحكم نفسه . فقد وجب أن يشعر كل فرد بتبعاته نحو حركة الرق الشعبي وأن يكون لحياته أثر محسوس في التوجيه الاصلاحى العام . فإذا كان على الحكومة أن تنشئ المدرسة أو المتحف أو المكتبة المجانية ، فان شيئا من هذا الواجب يقع أيضا على كاهل كل فرد . وصحيح أن الفرد قد يعجز عن انشاء واحدة من هذه المؤسسات ولكنه لن يعجز عن أن يشترك في حركة التنوير العام الذى تعتمد الى تحقيقه هذه المؤسسات . فان المستشفيات في بريطانيا مثلا ترد اليها آلاف المجلات والكتب التي يكون أصحابها قد فرغوا من قراءتها ، فهم يرسلونها الى المرضى ليتسلوا ويمتنروا .

ونحن نسمع من وقت لآخر عن الاصلاحات التي دخلت السجون وأنارت بعض الظلمة التي تكتنف هؤلاء الأشقياء . ولما نسى أن هذه الاصلاحات تعود الى امرأة انجليزية هي "اليزابت فرامى" التي قضت عمرها في الدعوة الى هذا الاصلاح تزور السجون وتصلح بيتاتها ثم تتعهد أولئك الذين قضوا مدة الأحكام التي قضى بها عليهم فتبحث لهم عن أعمال يتكسبون منها حتى لا يعودوا الى الاجرام . وعاشت هذه السيدة تضحي بوقتها ومالها من أجل هذا الاصلاح حتى حملت الحكومة على الأخذ بالكثير منه وبلاستمرار فيه .

ان الفرد في بريطانيا - ممثلا بشخصه أو بالجماعات المستقلة - هو الذي كاذب المرض والأمية والجريمة واليتيم . وهو الذي فتح الطريق للتأمين الاجتماعي من التعطل والمرض والشيخوخة . وهو الذي أوجد حركات الإصلاح المختلفة . ولم تكن الحكومة هي المرشدة أو الموجهة في كل هذه الحركات وإنما كانت تابعة مسترشدة تسير في طريق مبعدها لها الفرد . وهذا هو ما يجب أن يكون في كل أمة ديمقراطية تفهم حقيقة معنى الديمقراطية ما

سلامه موسى

نصيحة خبير مجرب

رأى أحد أهل الرأي من العرب صديقا له في صحبة رجل آخر فقال يحذره :

احذر فلانا فإنه كثير السؤال ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يطبق أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أحرث بنا قدمت ، فلا تظهر له المخافة فيرى أنك قد تحوزت ، واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر ، وتحفظ منه تحفظ الخائف ، فإن البحث يظهر الباطن الخفي ، ويبدى الكامن المستكن .